# الروحانية الحديثة

## رد على رد

للأستاذ عبد الواحد يحيى

---

لو كان الأستاذ فريد بك وجدى، قد قرأ ما كتبناه منذ عشر سنين تقريباً عن موضوع «الروحانية الحديثة» فانه ما كان ليكلف نفسه عناء جمع هذه الملاحظات التى كتبها فى الجزء الماضى من هذه المجلة، لأننا أجبنا عن كل منها إجابة تامة، وأكثر إسهاباً مما يمكننا ذلك فى هذه الصفحات القلائل. ومع ذلك سنحاول هنا ثانياً، أن نحدد مركزنا فى مثل هذا الموضوع حتى لا يبقى مجال آخر لذلك الاضطراب الذى نشأ من هذا البحث.

ينبغى علينا أولا أن لا ننكر أنه منذ ابتداء ما يسمى بالعصور الحديثة — أى منذ ثلاثة أو أربعة قرون — شك الغربيون فى كل معارف القدماء، ولكن ذلك إنما حدث لأنهم لم يدركوا تماماً معنى وطبيعة هذه المعارف، وفى نفس الوقت يظهر أنهم لم يستطيعوا أن يقبلوا أى شىء خارج عن دائرة التجاريب الحسية، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك، ظهور وانتشار المادية واتساع دائرة البحث اتساعاً غير عادى فى بعض علوم خاصة تختص بالمادة فقط. وقد كان هذا فى الغرب فحسب، أما الشرق فانه لحسن الحظ لا يزال محتفظاً للآن بمعرفته القديمة، ولم يقبل هذه الحدود المتعسفة ولم يستسغ أيضاً تعاليم فرنسيس با كون أو تعاليم ديكارت، التى لا توضح شيئاً ما للعقول الشرقية النقية، أى التى لم تتأثر بسموم الأفكار الغربية.

والآن، إن فكرة محاربة المادية المنتشرة فى الغرب بواسطة العلم المادى نفسه، هى فكرة خاطئة ولا تؤدى الى نجاح ما، لأن هذه الوسائل ليس لها من قيمة إلا فى دائرة خاصة ضيقة جداً، وإذا تعدتها تكون عديمة القيمة. ويظهر أن هذه الفكرة نشأت من توهم أن مثل هذه الوسائل هى الوحيدة « الوسائل العلمية » التى يمكن الاعتماد عليها فى محاربة المادية، ولكن هذه أيضاً أوهام غربية. وفى الحق ان لدينا علوماً أخرى لا تقل فى أهميتها وحقيقتها عن سابقتها، تستخدم وسائل مخالفة تمام المخالفة، غير معروفة للغربيين الحديثين

وإذا قلنا ذلك ينبغى أن نميز بين حقيقة مسألة الظواهر الشاذة التى نتحدث عنها هنا والتفسيرات المختلفة التى أعطيت لها هناك ، وإننا لنستغرب جداً أن الأستاذ فريد بك وجدى لا يزال يصر على النقطة الأولى ( الظواهر ) لأننا قلنا أنفسنا إن حقيقة هذه الظواهر لا تقبل الشك وإنها كانت معروفة فى كل العصور وفى كل الأقطار ، فان مثل هذه الحقائق شائعة الوجود وليست نادرة ولها من الأنواع ما يكثر عما يدركه الغربيون « الروحانيون الحديثون » أو غيرهم من الذين يحاولون دراستها .

وإننا لنأسف على أن الأستاذ فريد بك وجدى — فى هذه المسألة — يعدد كثيراً من أسماء العلماء الأوربيين والأمريكيين الذين اشتركوا فى هذه الدراسة كأننا ملزمون أن نقبل ما يمليه علينا هؤلاء العلماء . وإننا نأسف لأننا لا يمكننا أن نسيغ للشرقى أن يعتقد أنه ملزم بأن يتبع الغربيين ويتقبل تعاليمهم — وخاصة فى أشياء لا تزال حقيقيتها معروفة دائماً فى الشرق — بينما الغرب ليس إلا باحثاً فيها فقط . وليس من حاجة الى القول بأن الذين يبحثون عن شيء هم الذين لا يعرفون حقيقة هذا الشيء .

أضف إلى ذلك أن الأشخاص الذين ذكروا ليست قيمتهم متعادلة ، فلا يمكننا أن نضع فى صف واحد رجلا «طبيعياً» نقدره حق قدره مثل وليم كروكس مع آخر نعتبره «متجراً بالعلوم» مثل كاميل فلاماريون . كما أن علينا أن نضيف أنه إذا كان بعض الرجال قد قبل « الروحانية الحديثة » فأن كثيراً منهم اختلفوا فى وجهة نظرهم أو ربما صدوا أنفسهم عن أى نظرية أو تفسير . واننا نجد بين هؤلاء الذين صاروا «روحانيين حديثين» من اشتغل لأسباب لاصلة لها بالعلم مثل سيزار لومبروزو واولفرلودج ، فان الأول اشتغل بها بعد موت والدته ، والثانى بعد أن قتل ابنه فى الحرب . وهذا يظهر لنا أن مثل هؤلاء الرجال — بصرف النظر عن علومهم الخاصة — ضعاف العقول جداً . وينبغى أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن بعض العلماء لم يمنعهم تعليمهم من أن يخدعوا بالظواهر المصطنعة كما حدث لوليم كروكس مع وسيطته فلورنس كوك ، وكما حدث حديثا مع شارل ريشيه فى الجزاير ؛ وحدوث ذلك سهل الادراك جداً لأن هؤلاء الأشخاص — بعيدون عن حدود علومهم — ليس لهم أية كفاءة أكثر من أى انسان جاهل آخر . بل ربما وقعوا فى الخطأ بسهولة أكثر من أى شخص آخر ، لأنهم حينذاك يبحثون فى أشياء تختلف طبيعتها

وقوانينها اختلافا تاماً عن تلك التى اعتادوها ، ولأنهم يحاولون استعمال وسائلهم العادية فى هذه الأشياء بينما هذه الوسائل لم توضع لمثل ذلك مطلقا .

وماذا نقول فى ذلك التاجر الغنى الذى كان يتاجر بالنبيذ « جان ماير » الذى مات منذ شهور قليلة فقط ؟ صرف هذا الرجل ملايين عديدة لأنه طمع فى أن يصير يوما ما بابا «الروحانية الحديثة» وقد أثار حرباً بلا شفقة على هؤلاء (الاخوان الدينيين) الذين تعمدوا أن يؤسسوا جمعيات ومكاتب مستقلة واضطروا أن يذعنوا لقوة المال ، وكل ذلك بالطبع تحت اسم « الاخوة ـ الاخاء » وقد أسس هذا الرجل نفسه فى باريس معهداً « علمياً » لغرض إخضاع الباحثين الأحرار ، ونقصد بهم الذين لم يكونوا « روحانيين حديثين » وباستلامهم منه إعانات مالية لم يكونوا قادرين على أن يعارضوا شيئاً من « الروحانية الحديثة » وفى الحق أننا لنجد عاراً فى اضطرارنا إلى التصريح بمثل هذه الأسماء والوقائع على صفحات هذه المجلة التى ننزهها عن ذكر مثل هذه الأعمال .

أما الأخطار التى تنتج من « الروحانية الحديثة » فأننا نؤكد الاستاذ فريد وجدى بأن الجنون والحوادث الأخرى التى تنتج منها ليست شاذة بالمرة ، بل كثيرة الحدوث فى الواقع . فاذا قال لنا إنها تحدث لغير المتعلمين أجبنا بأن هؤلاء فى الواقع هم العدد الاكبر بين « الروحانيين الحديثين » فى كل الاقطار . وليس لنا الحق فى أن نترك هؤلاء الناس معرضين بدون وقاية من مثل هذه الاخطار التى تنشأ من انتشار الافكار الضارة ، وهم على استعداد لقبولها بدون فحص ولا روية ، بل ينبغى أن يكون العكس تماماً . ونضيف فوق ذلك أننا لا نظن مطلقاً أن التعاليم الخارجة كما تحصل فى المدارس والجامعات الغربية يمكن أن تحفظ صاحبها من هذه الأخطار البتة ، وذلك لأن ما يسمون بالأشخاص « المتعلمين » أو حتى مشاهير « العلماء » يجهلون تماماً الاشياء التى تبحث هنا .

أما تفسير الظواهر بواسطة مقدرة « الوسيط » نفسه ، فهذا صحيح ولكننا غير ملزمين بأن نقبله أو نرفضه ، لأن بعض الغربيين استساغه . حدث من هذا القبيل أنهم قرروا أشياء — بدون علم منهم — لم تكن بمستحدثة بالمرة بل كانت معروفة فى الشرق منذ آلاف من السنين ، واسوء الحظ نرى أن الغربيين تفهموها فى معنى ضيق جداً لأن معرفتهم بطبيعة الانسان الحقيقية ومقدرته ناقصة ، ولذلك لم يستطيعوا استعمال ذلك التفسير

فى حالات كثيرة يناسبها تماماً : ولا ينبغى أن نذكر أن تلك القوى التى لها نصيب هام فى توليد هذه الظواهر هى قوى عقلية ، بل هى قوى نفسية تختلف تماماً ويتسع مدلولها ومعناها أكثر من الأولى . ولكن ينبغى أن نكرر ثانياً أنها نفسية وليست روحية بالمرة ، مثل تلك العناصر التى يتركها الرجل بعد موته ، والتى ليست لها صلة بالجزء الخالد من كائنه . ونحن إنما نصر على هذه النقطة ـ لأنه ولو أننا أوضحناها سابقاً ـ إلا أن الأستاذ فريد بك وجدى يجعلنا نتكلم عن هذه كأنها عناصر روحانية . وإذا قلنا إن هذه ألطف وليست (من القوى التى فى الجسم ) بل ( من تلك التى فى عالم الجسم والحس ) أى أنها من تلك التى تدرس بواسطة العلوم الطبية الحديثة ، فانها تتسبب من طبيعتها النفسية ، وذلك لأن عبارة (العالم اللطيف) هى ترجمة أدبية للتعبير الهندى الذى يقابل (العالم النفسى) — هكذا يعبر عنه للمقارنه بينه وبين العالم الحسى — ولا يمكن أبداً أن يطابق العالم الروحى .

وعلى أية حال فان القوى التى تعمل فى هذه الظواهر سواء كانت تخص الوسيط نفسه أو أى حى آخر سواه ، أو كانت قوى أخرى خارجية مثل القوى السابحة ، أو قوى تنبعث من أحياء مثل الجن — هذه القوى كما ذكرنا سابقاً ، تقرب جداً من العالم الحسى ويجب أن تعتبر حقيقة من طبيعة منحطة . وفى مثل كل هذه الحالات لا تتداخل القوى العلوية مطلقاً ، ولو أن الأستاذ فريد بك وجدى يؤكد ذلك ، بينما لا يعطينا سبباً معقولا لهذا التأكيد — ونحن مضطرون لأن ننكر ذلك إنكاراً باتاً ، وحينئذ يسقط من تلقاء نفسه كل ما يحتم علينا أن نصدق ظهور شخصية أحد الموتى ، ولو أنه ينبغى علينا أن لا نقرر كذب ذلك مثل ما نقرر إذا رأينا أحد القردة يقلد حركات الانسان . وتستمد هذه القوى مظهر الحس من الأشخاص الذين تظهر بينهم ، ولذا فان الأفكار التى تعبر عنها هذه القوى تطابق تماماً ما يجول فى خاطر الأشخاص الذين يتسمعونها ، وهذا يفسر لنا لماذا تتناقض ما تسمى « الأرواح » بعضها مع بعض : خذ مثلا لذلك ، فبينما تشيع نظرية « التقمص » فى فرنسا إذ لا يعترف بها فى انجلترا وأمريكا . وقد رأينا «أرواحاً» مادية فى بعض الرسائل التى تسلمت فى هولندا منذ عشرين سنة تنكر الخلود وتثبت أن حياة الانسان تبقى بعد الموت على الأكثر لمدة ١٥٠ سنة !

والآن ينبغى أن نضيف ما يأتى : يوجد أشياء لا يمكن أن تخضع لوسائل العلوم

الغربية الحديثة المادية ،ولذا يقال عنها إنها خرافات أو من خيال القدماء بينما هى فى الواقع المنفذ الذى يؤدى إلى نوع آخر من العلوم يختلف تماماً عن العلوم المادية، وهذا العلم القديم هو الذى يجدر بنا أن نسميه بحق العلم الصحيح . وإننا لا نخاف إذا قررنا وجود نفوس بالكواكب وأن لها تأثيراً فعالا على الحوادث الأرضية . ولا نخاف أيضاً إذا اعترفنا — كما علمنا القدماء — بأن العناصر ليست أربعة بل خمسة ، وأنه لا يوجد أكثر من ذلك أو أقل . وأن هذه العناصر ليس لها أية صلة بما نسميه الكيميا الحديثة « المواد الأولية البسيطة » لأنها ( أى العناصر ) ليست أجساماً بل هى تلك التى تكون منها الأجسام .

لا يمكننا أن نعطى أى أهمية — إذا نظرنا إلى المعرفة الحقة — للعلوم الحديثة وهى على الدوام متغيرة غير ثابتة فى تفسيراتها ، فاذا سلمنا بالنتائج العملية التى تنتج من أشياء كثيرة كالكهرباء مثلا بدون معرفة لطبيعتها فلا نسمى هذا علماً، بل يجب أن يسمى فقط صناعة . فلا نستطيع مشاركة الأستاذ فريد بك وجدى فى تفاؤله بنتائج البحوث الغربية التى تظهر لنا كأنها تحاليل لا نهاية لها ظاهرية لا نفع فيها. وبما أننا نرى أن التقدم فى هذه البحوث يؤدى إن عكس كل ما هو طبيعة روحية ، فاننا لا نشك فى صعوبة بل واستحالة الوصول بهذه البحوث إلى فتح الطريق إلى العالم الروحانى : وإذا افترضنا حدوث ذلك بأى حادث كان ، فان ذلك سيكون نهاية العلم الحديث والمدنية كما يفهمها الغربيون ومع ذلك فمن المحتمل جداً أن يصل الغربيون إلى ذلك . وأخيراً نقول : إن الشرق يجب أن يحتفظ بعلمه الخاص فانه أصدق وأتم وأكثر انتشاراً فى كل الوجود بدلا من تضييق دائرته فى عالم المادة فقط . ولسنا كما يظننا الأستاذ فريد بك وجدى : نعيش فى زمن غير زمننا لأن زمننا يختلف عن زمن الغربيين . فبينما يحلم هؤلاء « بالتقدم » حتى يستيقظوا على صوت إحدى الكوارث — نعرف أن العهد الذهبى كان فى الحق عند ابتداء التاريخ البشرى إذ أعطيت كل المعرفة للانسان فى المبدأ ثم أخذت تختفى عنه تدريجياً بتوالى العصور وتنتقل رويداً من عالم الروح الى عالم المادة . وأخيراً نحن نؤكد أن تلك العقول التى تأثرت بالفكر الغربى سوف لا تزال تتهمنا بأن كل ما نقرره خرافات ولكن ذلك لا قيمة له من جهتنا . وانما نحن نوجه كلامنا هذا ، لا الى مثل هؤلاء الاشخاص ، بل الى الشرقيين الحقيقيين الذين يصرون دائماً على أن يكونوا — كما هو الواجب عليهم — محافظين على الحكمة الأبدية ؟

عبد الواحد يحيى